مجلة الآداب

والعلوم الإنسانية

دورية علمية محكمة تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

العدد الثاني عشر 2011

ISSN :1112-4628

قواعد النشر بمجلة الآداب والعلوم الإنسانية

- تتولى المجلة نشر المقالات والدراسات باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.
- أن يلتزم الباحث بالمنهج العلمي والموضوعية، وأن يتصف البحث بالأصالة والعمق والبعد العقلاني العلمي وروح النقد.
- يستحسن أن لا يزيد عدد صفحات المقال على 20 صفحة ويرسل مباشرة على عنوان المجلة الإلكتروني.
- توضع الهوامش والتعليقات في أسفل الصفحة.
- تمتنع المجلة عن نشر المقالات التي تم نشرها سابقا أو تم توجيهها للنشر في جهات أخرى.
- تخضع الأعمال المرسلة إلى المجلة للتحكيم، ولا يحق لصاحب البحث سحب بحثه بعد تقديمه إلى المجلة، ولا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي صاحبه، والمجلة ليست مسؤولة عما يرد فيها من أفكار.

فهرس العدد

عرض كتب ودراسات

الجيش الرستمي
دعوى الغياب ومقتضى الحضور

أ.علي عشي
جامعة باتنة -الجزائر

كانت الهزيمة في طبنة أمام عمر بن حفص سنة 771/155[1] نقطة تحول بارزة في تاريخ قيام الدولة الرستمية، فقد رأى عبد الرحمن بن رستم (ت 787/171) أن ينسلخ عن قوى الصفرية المتضاربة التي لا تجمعها أهداف واحدة، وفضل أن يعمل بمفرده معتمدا على نفسه وعلى التجمعات الاباضية التي تقف حوله في المغرب الأوسط.

---

1) بعثه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بعد مقتل الأغلب بن سالم إلى إفريقية الذي وصلها سنة 151/ 768 وعرف بلقب هزارمرد والتي تعني ألف رجل وهدأت الأحداث في عهده واستقرت الأمور طيلة ثلاث سنوات، فأغراه ذلك فأراد التوجه إلى طبنة قاعدة إقليم الزاب لتحصينها وحماية القيروان، فأحس عبد الرحمن بن رستم بخطر ذلك فنسق مع جماعات الخوارج والبربر وزحفوا نحو القيروان، فقتلوا حبيب بن حبيب المهلبي، ثم توجهوا نحو طبنة وحاصروها، فعمد عمر بن حفص إلى الحيلة لتفريق هذا الجمع، بإرشاء أخ أبي قرة الصفري الذي عاد بالجيش، فلم يبق إلا جيش عبد الرحمن بن رستم، الذي باغته وألحق به هزيمة: فتراجع إلى إقليم تاهرت، فكانت هذه الهزيمة نقطة تحول في تاريخ قيام الدولة الرستمية -محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي: دار القلم للنشر والتوزيع، ط 3، 1987، ص 87- 91

ورغم أن الدولة الرستمية (160-776/296 -909) حظيت بدراسات عديدة في المشرق والمغرب [1] إلا أنه تبقى بعض القضايا التاريخية التي تخصها تحتاج إلى تسليط الضوء أكثر والبحث فيها، ومنها قضية غياب الجيش الرستمي المنظم والذي أدى إلي سرعة سقوطها في يد أبي عبد الله الشيعي.

حيث تعتبر هذه القضية محيرة فعلا، حركت في داخلي دافع البحث في الموضوع، نعلي أتوصل إلى نتائج تساهم في إثراء التراث الوطني وتغيير بعض الأقوال والآراء التي ألصقت في التاريخ الإباضي الرستمي.

وهنا يجدر بنا طرح إشكالية مهمة وهي لماذا لم يهتم الرستميون بالجيش رغم تكوينهم لدولة قوية سيطرت على أغلب المغرب الأوسط وجزء من الأدنى؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية تساؤلات ذات دلالة؛ منها لماذا سكتت المصادر الاباضية عن إمدادنا بمعلومات عن جيش الدولة الرستمية؟ [2] وهو ما جعل بعض المستشرقين منهم ألفرد بل (Alfred Bel) وشارل أندري جوليان (Charles-André Julien) من أوائل المؤرخين اللذين أشارا إلى غياب الجيش الرستمي ودفعا بالعديد من المؤرخين الحاليين إلى اتباعهما بل ومحاولة تفسير نظريتهما؟ كيف استطاعت الدولة الرستمية الحفاظ على كيانها مدة تفوق المائة والثلاثين سنة دون جيش؟ كيف حافظت على حدودها المترامية الأطراف حتى طرابلس؟ وكيف عقدت علاقات ندية

---

1) منها دراسة جودت عبد الكريم يوسف العلاقات الخارجية للدولة الرستمية وكتاب مسعود مزهودي الاباضية في المغرب الأوسط، وكتاب محمد عيسى الحريري الموسوم بالدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي " حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، وكتاب إبراهيم بكير بحاز بعنوان الدولة الرستمية " دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ".

2) باستثناء إشارة خفيفة من أبي زكرياء والباروني نقلا عنه؛ عند الخروج لاستقبال أبي عبد الله الشيعي الذي لم يجد مقاومة تذكر، أبو زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1982، ص 169- الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، مصر، مطبعة الأزهار البارونية، ب ت، ج2، ص292.

ذات سيادة مع مختلف الدول المجاورة والمعاصرة لها إن كان ليس لها جيش وقوة تفرض ذلك؟

أهم الآراء التي وردت في الجيش الرستمي

إذا كانت العصور القديمة تميزت باستخدام تقنيات ووسائل بسيطة في الدفاع والجيش، فإن العصور الوسطى قد تميزت بالفروسية كأهم نظام عسكري في البداية، ثم كان لاكتشاف البارود [1] أثرا بالغا في اختراع الأسلحة النارية والمدفعية، مما أدى إلى تطور أساليب القتال [2]، ومن هنا يجب حصر الفكر العسكري المتمثل في الجيش ومقوماته وتنظيمه وتركيبه في إطاره الزماني والمكاني، فلا يمكن أن نقول بأن دولة ما لا تملك جيشا أو عدة وعتادا إلا بالرجوع للمقارنة والاستقصاء الخاص بتلك الفترة والعصر.

وأول من أورد فرضية افتقار الرستميين للجيش هو ألفرد بل الذي قال " ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم: وهو ابن رستم، وأهملوا في العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم، ولهذا انهارت هذه في سنة296- 297 هـ /909 م حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي " [3]

ولكن المتمعن في كلامه يستشف منه تناقضا، حينما قال مفسرا سبب عدم تكوينهم للجيش، هو هدوء العلوم الدينية لديهم، فلم يصبحوا يفكرون في الحرب. ويقصد من كلامه أن الرخاء الاقتصادي جعلهم ينشغلون بالعلوم الدينية من تفسير

---

1) بداية اكتشاف البارود كانت بالصين حوالي 600 م ثم انتقلت إلى العرب ومنهم إلى أوروبا – عزيزي عبد السلام، أكبر الاكتشافات والاختراعات في تاريخ البشرية، الجزائر، دار الاخوة مدني، 2001، ص 36.

2) ش. أحمد، "الفكر العسكري الحديث"، مجلة الجندي، 206، (1999)، ص 21.

3) ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، من الفتح العربي حتى اليوم. ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 150.

وحديث وقرآن ويهملون القتال، رغم أن من مبادئ الدين الإسلامي الجهاد في سبيله، وهي المبادئ التي خرج من أجلها الخوارج في البداية أصلا [1] فكيف يتم الآن إهمالها بسبب الدين وهو العامل الذي دفعهم للخروج أول مرة.

وقد سار أندري جوليان على نهج ألفرد بل بقوله "... ولكن رغم توالي الصدامات فإنه يبدو أن مجتمع تاهرت لم تغلب عليه النزعة الحربية، ذلك أن المعارك لا تسيل فيها الدماء كثيرة، فلا ملاحقة في الغالب للفارين ولا إجهاز على الجرحى، بل كان الخصوم يجنحون إلى التحكيم، وكان هذا ولا شك السبب في زوال مملكة بني رستم، ذلك أن الأئمة لم يوفقوا إلى تنظيم جيش عتيد، وما كادت جيوش الشيعة أن تشن هجومها حتى استولت على العاصمة من دون عناء " [2]

ونستشف من كلامه أن المجتمع التاهرتي الاباضي لم تغلب عليه النزعة الحربية، وهذا طبيعي لسببين أن المذهب الاباضي مذهب معتدل سلمي يحرم الاعتداء على الأسرى والجرحى ' والسبب الثاني كون أغلب أئمة الرستميين من العلماء والفقهاء، لا من العسكريين، وهذا كله لا يعطينا تفسيرا واضحا لأنه كم من عالم فارس وكم من مجتمع مسالم إلا أنه لم يهمل إنشاء جيش قوي.

وأندري جوليان يجزم أن هذا السبب هو الذي دفع بالدولة الرستمية إلى الهلاك والزوال، حيث لم يوفق الأئمة الرستميون في تكوين جيش عتيد، وهنا نتوقف قليلا لوصفه هذا الجيش بالعتيد، فهي سنة الله في خلقه حيث كيف يطالب من دولة في

---

1) عند انهزام جيش العباسيين أمام أبي الخطاب المعافري أرسل الخليفة المنصور جيشا بقيادة ابن الأشعث، وقد عمل هذا الأخير على إرسال عيونه وجواسيسه إلى معسكر الاباضية، فجاءته الأخبار أنهم فرسان في النهار رهبان بالليل، يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة، فعمد إلى الحيلة بالتظاهر بالرجوع مستغلا الشقاق الذي ثار بين زناتة وهوارة، فهزمهم وقتل أبا الخطاب في موضع تاورغا سنة 144 هـ - أكثر تفاصيل لاحظ، أبو زكريا، المصدر السابق، ص 66- 68 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الفكر، 1979، ج1، ص 281.

2) شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1983، ج2، ص 47.

أواخر أيامها من فوضى وصراعات على السلطة وتفرقة عصبية قبلية [1] أن يكون لها جيش عتيد، وهنا يلمح إلى أن الجيش كان موجودا لكنه ضعيف على حال الدولة وأيامها الأواخر.

أما العلامة علي يحي معمر النفوسي (ت 1400/1980) فيقول " فالدولة الرستمية هي الدولة والوحيدة في ذلك الحين، التي ليس لها جند قابع في الثكنات، ينتظر التعليمات، ويحلم بالمكاسب والغنائم من وراء الحرب والغارات " [2]

ورغم أنه اباضي من معقلهم الأصلي جبل نفوسة إلا أنه أصدر الحكم بغياب جيش يتمركز في الثكنات وله تدريبات خاصة وراتب محدد يكفل به عائلته وحاجاته ما دام لا يعمل، بل عمله الوحيد هو التدرب والحفاظ على تركيزه ونشاطه العسكري، وهنا نريد أن نوضح أن أغلب الدول التي عاصرت الدولة الرستمية كبني مدرار أو الادريسية وبرغواطة لم يكن لهم جيش نظامي متركز في الثكنات، باستثناء الدولة الأغلبية، إذن فهي حالة عامة ومظهر جلي على كل دويلات المغرب المستقلة.

مقومات توفر جيش قوي

ومن بين الأقوال التي وجدتها أقرب إلى الحقيقة قول شيخ بكري " أن الرستميين لم يكن لهم جيش منظم في البداية، ولكن ابتداء من الإمام الثاني أصبحوا يملكونه، إن كان صغيرا، ثم أن جيشهم لم يكن له دور بارز " [3]

---

1) الاباضية، عندما استولى اليقظان بن أبي اليقظان على الحكم تبرؤوا منه واعتزلوه، ولم يعتبروه إماما من أئمتهم، وكانوا يبرؤون ممن دخل تحت طاعته ورضي بحكمه واعترف بإمارته – أنظر علي يحي معمر، الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، الاباضية في الجزائر، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، مكتبة وهبة، 1979، ص 63، لذلك كان أبو عبد الله الداعية الشيعي عندما اقتحم تيهرت، لم يخرج ضده أحد، بل أن المصادر الاباضية تذكر أن ابنة الإمام المقتول أبي حاتم "دوسرا" وأخاها هما اللذان استدعيا أبا عبد الله، وحرضاه على قتل اليقظان انتقاما لأبيهما - أنظر أبو زكريا، المصدر السابق،ص 122.- وكذلك الباروني:الأزهار الرياضية، المصدر السابق، ص 292.

2) علي يحي معمر، الاباضية، ج4 " الاباضية بالجزائر "، ص 50- 51.

3) Chikh Bekri , « Le Kharijisme berbère, quelques aspects du royaume rustumide », *Annales de l'Institut d'études orientales*, XV (1957), p.73- 75

وهو قول مقبول حيث عندما نزل عبد الرحمن بن رستم من جبل سوفجج التفت حوله القبائل الاباضية وشكل منها جيشا متطوعا، حيث يشير ابن الصغير عند حديثه عن وفد البصرة القادم على عبد الرحمن بالمساعدة المادية حيث قسموا الأموال، فجعلوا منه ثلثا في الكراع – يقصد به هنا الخيل – وثلثا في السلاح وثلثا في الفقراء.[1] والسلاح والخيل دليل على وجود جيش لأنه يعد الركيزة الأساسية التي تستند إليها الدول عادة في تثبيت كيانها ورعايتها، سواء على المستوى الداخلي بحفظ النظام ودفع السكان إلى الالتزام بالأوامر والقوانين التي تسيرهم، وعلى المستوى الخارجي بصد الأخطار التي تهددها، ورد الأعداء الراغبين في التوسع على حساب أراضيها.

لكن ابتداء من الإمام عبد الوهاب (171 – 787/211 – 826) أصبح الجيش النظامي موجودا رغم عدم وصوله مصاف الجيوش القوية إلا أنه استطاع أن يخمد كل الثورات التي ثارت ضده، حيث سمى ابن الصغير أتباع عبد الوهاب بالوهبية وقال أنهم يسمون أيضا بالعسكرية وهم أهل العسكر، ويضيف أن جل من كان بتيهرت من النفوسيين يتسمون بهذا الاسم، فلا شك أن تكون هذه التسمية وظيفية وليست مذهبية، ويقصد بهم حماة الرستميين والإباضية، ولا أدل على ذلك من قول الإمام عبد الوهاب"إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة " فنفوسة إذن كانت جندا وعسكرا للإمامة الرستمية [2]

ويشير دائما ابن الصغير (كان حيا أواخر القرن 3 هـ/9م) أن الإمام عبد الوهاب خرج بجيش من الإباضية عد في عسكره ألف فرس أبلق لقتال بني أوس من هوارة.[3] ويضيف الدكتور إحسان عباس بقوله " أن الصبغة العسكرية غلبت على عبد الوهاب،

1) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر، إبراهيم بحاز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 35.

2) المصدر نفسه ، هوامش، ص 45.

3) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 54.

لحاجته إلى القضاء على الفتن وتوطيد أركان الدولة، بل والطموح إلى التوسع الخارجي، حتى اجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لأحد قبله " [1]

وبالنسبة لابراهيم بحاز في كتابه الدولة الرستمية، فقد مر على موضوع غياب الجيش مرور الكرام بتكرار نفس كلمات من سبقوه بقوله" ثم يضاف إلى هذا كله – يقصد أسباب سقوط الدولة – عامل فقدان الجيش المنظم، إذ أن الرستميين أهملوا هذا الجانب رغم الفتن والثورات والحروب التي مرت بهم، وبقوا طوال عهدهم يعتمدون على المتطوعين الذين يكونون غالبا من الاباضية " [2]

فهو يقر أن الدولة بقيت في حروب وفتن عكس ما ادعاه ألفرد بل وأندري جوليان بقولهم أن الهدوء والاستقرار ساهم في الابتعاد عن الجيش، كما أن الدكتور بحاز يذكر ببقاء الحروب والفتن [3] التي تتطلب وجود جيش يفرض النظام واستمرار الدولة فكيف يعقل أن تستمر الدولة كل هذه المدة في الفتن والحروب دون وجود جيش؟.

أما محمد عيسى الحريري، فقد اكتفى بنقله كلام ألفرد بل وأندري جوليان، بقوله "..عجز الرستميين عن اتخاذ خطوات عملية لإنقاذ نظامهم السياسي، لأن الرستميين لم يكن لديهم جيش ثابت يواجه هذه الأطماع، الأمر الذي دعاهم إلى اللجوء إلى الأساليب الملتوية كالتجسس، وتقديم الرشاوى، والخداع فضلا عن الاغتيال السياسي" [4]

لكن ما يعاب على هؤلاء الكتاب الاعتماد على أقوال المحدثين دون تحليل أو تمحص فلا تخلو دولة من الدول سواء الحديثة أو القديمة من هذه المظاهر وذلك من

---

1) إحسان عباس، "المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين"، مجلة الأصالة، 45 (1975)، ص 24.

2) بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، القرارة، جمعية التراث، ط2، 1993، ص 130.

3) بحاز إبراهيم بكير، نفس المرجع والصفحة.

4) محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها، وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ط 2، 1987، ص 228.

أجل تدعيم أركان الدولة وإزاحة كل المخالفين والمعارضين، وحتى هذه الأعمال لا تنفي وجود جيش نظامي للدولة قد يكون قليلا أو غير منظم بالشكل المطلوب لكنه موجود.

وحتى الدول المعاصرة للدولة الرستمية لم يكن لها جيش ثابت نظامي، باستثناء الدولة الأغلبية التي استمدته كونها الممثلة الوحيدة للخلافة العباسية ذات التقاليد العسكرية الكبيرة، فإذا نظرنا إلى دولة بني مدرار أو دولة الأدارسة، فلا وجود لجيش نظامي بالمعنى الحقيقي، ولا يمكن أن نطلق حكم غياب الجيش الرستمي لأن أبا عبد الله الشيعي دخل تيهرت وخربها دون مقاومة، لأن كل دول بلاد المغرب سقطت في يده وبكيفيات متقاربة رغم بعض المقاومات البسيطة، إلا أنه لم يتم الحكم على غياب الجيش الأغلبي أو الادريسي.

وكما هو معروف فنشأة الدولة عموما ليس سوى خطوة جديدة من خطوات عديدة في سبيل تحقيق الرفاه الحضاري من نشاط عمراني واقتصادي وحتى عسكري؛ فكيف بدولة نشأت على الجهاد [1] أن تتركه وتتلهى بالحياة؟

ومن أهم المعارك التي خاضتها الدولة الرستمية وترمز إلى وجود جيش منظم وقوي معركة طبنة سنة 771/155 ضد عمر بن حفص [2] ومعركة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ضد يزيد بن فندين وأتباعه النكارية سنة 787/172– 788 [3] ثم ضد

---

1) ذكر الدرجيني في إمامة أفلح، وخلال الحرب التي وقعت بين جيشه بقيادة أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي وأحد المنشقين وهو خلف بن السمح " فأمر أبو عبيدة أصحابه بالخروج، فخرجوا وهم في عدد قليل، ولكنهم أهل بصائر يموتون على ما بأيديهم من الحق، لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم، ولا يعدون زادا إلا تقواهم..وقد اختلف في عددهم فقيل سبعمائة وقيل عدد أصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر.." الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم محمد طلاي، ط2، بدون دار نشر،ج1، ص 72، وهو تعبير مهم جدا في حبهم للجهاد و الآخرة تشبيها بصحابة الرسول "ص" في غزوة بدر

2) لاحظ الهامش في هذا المقال، ص 1.

3) قاد المعركة في غياب عبد الوهاب ابنه أفلح، حيث استطاع أن يقتل ابن فندين وينهزم أصحابه – الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، طبعة حجرية، قسنطينة، 1883، ص 150– ويذكر

الواصلية من بني يفرن وبعض النكار، مع مساندة خارجية من الأدارسة، وكان ذلك سنة 789/173، حيث دارت بين الفريقين معارك كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين [1] ثم حارب تجمعات قبائل مزاتة وسدراتة بعد تحريضهم من الواصلية [2] كما حارب عبد الوهاب قبيلة هوارة عند نهر أسلان وانتصر عليها انتصارا كبيرا [3] وحاصر طرابلس سنة 811/196، مما اضطر عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب إلى عقد صلح واعتراف بسيادة الرستميين على المناطق الداخلية من طرابلس [4].

كما أنه كيف يعقل لدولة أن تصل حدودها لتشمل أغلب المغرب الأوسط وجزء من الأدنى دون جيش؟، بل أكثر من ذلك قاموا بتقسيم دولتهم إلى عمالات منها قفصة وسرت، ونفزاوة وقنطرارة، وجبل نفوسة، وقابس وجبل دمر.... [5] كما وضع عبد الرحمن بن رستم نظاما للقضاء والشرطة وجباية الأموال [6] وواصل على نهجه خلفاؤه من الأئمة حيث أسس الإمام أبو اليقظان (241 – 855/281 – 894) فرقة كاملة للقيام بأعمال الحسبة [7]، فكيف بدولة اعتمدت على أنظمة محكمة استمدت بعضها من الأنظمة الفارسية والأخرى من العربية لا تهتم بإيجاد جيش قوي يحمي هذه الدولة وهذه الأنظمة وهذه الحدود المترامية؟.

الكتاب الاباضية أن عدد القتلى بلغ اثني عشر ألف قتيل – محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 118، ثم انتقم النكارية بقتل ميمون بن عبد الوهاب، فأرسل لهم هذا الأخير جيشا كبيرا فقتل أكثرهم، فضعف أمرهم –الباروني، الأزهار الرياضية،المصدر السابق، ج2، ص 114- 115.

1) الباروني، الأزهار الرياضية، المصدر السابق، ج 2، ص 117.

2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 47- 51.

3) نفسه، ص 52- 54.

4) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج 5، 382.

5) الباروني، المصدر السابق، ج2، ص 165.

6) محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 229.

7) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر، المطبعة العربية، 1350 هـ، ص 21.

وكيف للوالي العباسي في القيروان روح بن حاتم (ت 791/174)، أن يعقد معاهدة سلام وموادعة مع عبد الرحمن بن رستم عام 787/171 [1] وهو ألد الأعداء له، إذا لم يكن قد أنس منه قوة تحميه وتحمي دولته، بل حرص على تجديد المعاهدة بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم مع ابنه عبد الوهاب.[2] ويضيف محمد عيسى الحريري " وأصبحت الدولة الرستمية دولة قوية هابها جيرانها.." [3] فالهيبة لا تأتي من فراغ بل من قوة يجسدها جيش قوي.، كما يوضح محمد علي دبوز بقوله " وكانت الدولة الرستمية أقوى دولة حربية في الجهة الغربية، فهي التي حمت الدولة الادريسية، فلم يسر العباسيون للقضاء عليها، ولم يستطيعوا الدنو من حماها " [4]

فمن مقومات وجود جيش لدولة ما خلال أي فترة زمنية هو توفر العدة والعدد والمال [5] إضافة إلى القيادة الحكيمة والظروف المتوترة وكل هذه المقومات موجودة في الدولة الرستمية.

فإذا بدأنا بالعدد والمقصود به توفر العنصر البشري فنجد الجيش الرستمي تكونه مختلف قبائل التحالف الاباضي وأساسه في البداية لماية ثم نفوسة[6]. ثم بقية القبائل الاباضية البربرية المتحالفة كلواتة وهوارة وزناتة، ومطماطة.

أما بخصوص القيادة الشجاعة، وهذه صفة فطرية، وهبة من الله، تلعب الوراثة– كما يقول علماء النفس– دوراً كبيراً في نقلها من السلف إلى الخلف، وتعطيها لإنسان

---

1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1971 م، ج4، ص 113 – الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص 93.

2) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحة.

3) محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 107.

4) محمد علي دبوز، المرجع السابق، ج3، ص 326.

5) الإمامة عند الاباضية أربعة مراحل وآخرها إمامة الظهور، التي لا يتم الإعلان عنها إلا إذا توفرت القدرة الكامنة في العدد والعدة – عدون جهلان، الفكر السياسي عند الاباضية، القرارة، جمعية التراث، ب ت، ص 65 وما بعدها.

6) حول نفوسة، أنظر مسعود مزهودي، جبل نفوسة من انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى المغرب، ليبيا، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، 2006، ص 25.

وتحرم منها آخر، وقد تتجلى الشجاعة في الجسد عند أناس، أو تتجلى في الرأي والفكر عند أناس آخرين، ولما كانت هذه الشجاعة فطرية فإن الأحداث والأيام والمعارك تنميها وتصقلها. وممارسة الحرب، وخوض المعارك من شأنها أن تؤصل الشجاعة في الشجاع، وتؤكد فيه نزعة الإقدام، ومبارزة الخصوم، بقلب جسور، وعزيمة صادقة[1]، وهذه الخصائص تركزت في عبد الرحمن بن رستم وفي أبنائه وأحفاده من بعده كعبد الوهاب وأفلح، خاصة حسن الوعي بالمهمة الملقاة على عاتقهم المتمثلة في الحفاظ على الدولة، وتوصيل رسالتها في الحفاظ على المذهب الاباضي.

ومن العناصر المدعمة أيضا لوجود الجيش هو انتشار الصناعات المكملة، أو ما يعرف بالتسليح الحربي، والتي لها علاقة بما يحتاجه هذا الجيش، ويقوم الإعداد المادي للجيش خلال هذه الفترة على أربعة أسس هي : العنصر البشري، المال والمواد من حديد وخشب.[2]

وأغلب هذه المقوسات موجودة عند الدولة الرستمية، حيث يوجد حدادون ماهرون سواء محليين، أو أندلسيين اهتموا بصناعة السيوف والسهام والخناجر والدروع [3] وكان لتوفر المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات أثره في وفرتها، كما تعددت المناجم التي أمدت الصناع بحاجاتهم ولوازم صناعتهم، ففي جبل أرزوا توفر معدن الحديد والزئبق [4] كما توفر معدن الحديد بالقرب من وهران [5] وحتى

---

1) محمود الربداوي، "مقومات النصر"، مجلة التراث العربي، 88، (2002)، ص 8.

2) هندي إحسان، الحياة العسكرية عند العرب أو الجيش العربي في ألف عام (500- 1500 م) دراسة تاريخية عسكرية لنظم التعبئة وفنون القتال والأسلحة عند العرب منذ الجاهلية إلى الفتح الإسلامي، دمشق، مطبعة الجمهورية، 1964، ص 76، ص 83.

3) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص 36.

4) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، الجزائر، مطبعة الحكومة، 1857 ، ص 70.

5) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد ومحمد العربي العلمي، 1949، ص 357.

الصناعات الخشبية التي تميز بها شمال الدولة الرستمية مقارنة بجنوبها نظرا للطبيعة الجغرافية، ساهمت بشكل في تكوين قوة بحرية[1] أو مجموعة بحرية ولو بسيطة سواء لنقل الأشخاص بين سواحل الدولة أو نحو الدولة الأموية بالأندلس، أو في جزيرة جربة [2].

ولعل توسع الرستميين لرقعتهم الجغرافية شرقا، وضمهم لجبل نفوسة وجزء من طرابلس ساهم بقدر كبير في تموين الجيش عددا وعدة ومالا، وسمح لها بالاستفادة الدائمة من عديد الوسائل الحربية حتى الجديدة منها لانفتاح هذا الجزء على البحر وقربه من الدولة الأغلبية وكذا مصر.

إضافة إلى توفر الموارد المالية التي تدعم إنشاء جيش قوي من خلال التجارة المتطورة والرفاه الاجتماعي[3] الذي صبغ الحكام والناس خاصة بعد عبد الرحمن بن رستم، إضافة إلى الضرائب التي كانت تدفعها القبائل خاصة نفوسة – حصة الأسد – إلى بيت مال المسلمين.[4] جعلت الرستميين يشترون الخيول ليجعلوها من عتاد الحرب الذي يعتمد عليه جيشهم، ونستشف ذلك من قول ابن الصغير "...قال ثم جالت الخيول فكان قتال شديد له غبار سد ما بين الخانقين، قال وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا أو قلبا، فإذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارسا فيقول من الفارس هذا قد أجفل الناس؟ فيقال له ابنك أفلح."[5]

---

1) حيث يصف صاحب كتاب البلدان أن للدولة الرستمية حصن كبير على ساحل البحر الأعظم ترسى به مراكب تاهرت يقال له "مرسى فروخ" – اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، 1860، ص 7- 14.

2) البكري، المصدر السابق، ص 61– 62، ص 70.

3) حيث قال الإمام عبد الوهاب أنا وابن جرني وابن زعلين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية – الزكاة –، فهو ذو ذهب وفضة، وابن جرني فلاح عظيم كانت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البر والشعير، وابن زلغين ذو ابل وغنم له من ذلك ما يعد بمئات الألوف – الباروني، الأزهار الرياضية، ج 2، ص 137.

4) محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط 2، 1985، ص 198.

5) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 54.

كما أن المساعدة المالية من قبل اباضية المشرق، حيث قال أبو زكريا (ت 471 / 1078)

"..فأشاروا عليه أن يأخذها – أي المساعدة المالية – فيبثها في فقراء المسلمين وفي شراء السلاح والعدة.." [1]

وتستند الدولة الرستمية في إعداد جيوشها على اقتطاع جزءا من ميزانية خاصة للتعبئة، فبحجم زيادة المداخيل أو نقصانها ينعكس على هذا الجهاز إيجابا أو سلبا، وبها تتحدد قوته وفعاليته.

ولا ريب أن الدولة الرستمية قد استغلت هذا الثراء، في سند الدعوة، بل تعدته إلى المجالات العمرانية كبناء المستشفيات [2] والعسكرية مثل الإنفاق في شراء الأسلحة وبناء الحصون وتسديد رواتب الجند [3] وأقول هذا على سبيل التقدير والاستنتاج لأن مصادرنا نفسها كانت صريحة في التحدث عن استغلال تلك الثروات الطائلة في الصراع بين فئات المجتمع التاهرتي.

أما الجو السائد في الدولة الرستمية فقد كان جوا متوترا في أغلب فترات الحكم كان يشجع على استمرار التفكير في إنشاء جيش قوي من خلال التوتر الذي كان في البداية مع الأغالبة ثم المساندة الادريسية لبعض المعارضة الداخلية [4]، أو الثورات المحلية ضد الحُكم أو لأسباب فقهية دينية [5] أو لأطماع سياسية أو اقتصادية كالسيطرة على أراضي الكلأ والرعي.

---

1) المصدر السابق، ص 84.

2) إحسان عباس المرجع السابق، ص 31

3) كان الإمام عبد الوهاب يدفع مرتبات الجيش كغيرها من مرتبات القضاة ورجال الشرطة وغيرهم – من مال الجزية وخراج الاراضي، وتلك هي السنة التي سار عليها الإمام الأول عبد الرحمن – إحسان عباس، المرجع السابق، ص 24..

4) لاحظ أبو زكريا في وصفه لمحاربة الواصلية الذين كانوا أغلبهم من زناتة ومساندة الدولة الادريسية لهم – أبو زكريا، المصدر السابق، ص 101 – 103.

5) لاحظ فتنة النكار – ابن الصغير، المصدر السابق، ص 50-51.

تركيبة الجيش الرستمي

وبناء على كل ذلك يمكن أن نستنتج بأن الجيش الرستمي كان قوام تقسيمه لا يخرج عن النظام التقليدي الذي اعتمدته كل الدول الإسلامية المعاصرة لها سواء في المشرق أو المغرب، في تقسيم الجيش ثنائيا إلى قسمين :

جيش نظامي : قوامه العناصر التي اتخذت الجندية مهنة قارة، مشكلة بذلك النواة القاعدية للجهاز العسكري للدولة، ويعتقد إحسان عباس بوجوده، لكنه ضعف في العهد الأخير للدولة بقوله " ويبدو أن الجيش النظامي الذي كونه الإمام عبد الوهاب، كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة" [1]

ونستشف من قول ابن الصغير في وصفه لازدهار بنيان تيهرت في عهد أفلح، بقوله " وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم " [2] فقد وصف مهنتهم بالجندية وهو دليل على وجود جيش نظامي ثابت، ليواصل ابن الصغير في وصفه لأحوال إمامة أفلح "...وكانت الأجناد بطانة السلطان وأولاده وحشمه.." [3] فهو يستدل بوجود جيش يحمي أسرار الدولة من خلال وصفه بالبطانة وهي السريرة، والأهل والخاصة، كما يقول في موضع آخر عندما يشرح سياسة أفلح وهي فرق تسد "...فلما رأى ذلك أرشى ما بين قبيلة ومجاورها، فأرشى بين لواتة وزناتة وما بين لواتة ومطماطة وما بين الجند والعجم..." [4] وفي هذا الموضع أيضا يذكر الجند كوظيفة في الجيش، حيث بمرور الزمن انضاف إلى هذه الجيوش جند هاجروا من إفريقية. [5]

---

1) إحسان عباس، المرجع السابق، ص 34

2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 62.

3) المصدر نفسه، ص 63.

4) نفسه، ونفس الصفحة.

5) إحسان عباس، المرجع السابق، ص 24

فكانت القوات النظامية أساسها القبائل المستقرة بتيهرت وضواحيها كقبيلة لواتة، لماية، وزناتة، ومطماطة، وهوارة إضافة إلى العجم [1] والعرب من الكوفيين والبصريين، وأهل إفريقية.[2] ونفوسة المهاجرة ويقول محمد دبوز " وكانت كل قبيلة تسلح نفسها، وتستعد للحرب، لتستجيب داعي الإمام إذا استنفرها، ودعاها لحروبه المشروعة " [3] وهو دليل قاطع على وجود التسليح والتدريب في كل قبيلة واستعداد تام لأي حرب وهو ما يرمز لوجود جيش نظامي.

ويظهر أن العرب من خلال كتاب ابن الصغير قد مثلوا فئة في الجند، لكنه لا يوضح صراحة من أين جاء العرب، بل نفهم من ثنايا الكلام أنهم من الكوفيين والبصريين وأنهم أقاموا أحياء وأسواقا ومساجد خاصة بهم ثم يتحدث عن أهل إفريقية وأنهم كانوا من الجند، ويربط في حديثه عن الفتنة- التي حدثت على عهد أفلح - دائما بين العرب والجند كأنهم فئة واحدة [4]

وبما أن الجيش يشكل من المجتمع التاهرتي، الذي هم نوعان، مستقرون داخل تيهرت ورحالة يقيمون خارج المدينة، وعلى رأس المستقرين قبيلة " نفوسة " التي مثلت في وقت من الأوقات العصب الأساسي للدولة، وأصلها من نفوسة الجبل هاجرت إلى تيهرت، أما قبيلة لواتة فمنذ مصاهرتها للإمام عبد الوهاب أضحت تلعب دورا مهما في الحياة السياسة [5]، إلى أن طردتها هوارة من مدينة تيهرت، فسكنت

1) كلمة العجم وردت مرات عديدة في كتاب ابن الصغير، لكن لا نعلم بالتحديد ماذا يقصد بها، لكن بعكس ما قيل بأنهم من الفرس جاءوا لما سمعوا بحكم الرستميين لتيهرت لأنهم من نفس الجنس، حيث ظهروا كفئة فاعلة ومؤثرة خاصة بعد مقتل ابن عرفة واندلاع الفتنة –قدور وهراني، 'جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمدينة تاهرت من خلال كتاب ابن الصغير'، مجلة التراث العربي، 106، (2007)، ص 217.

2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 62؛ ولم يحدد ماذا يقصد بأهل إفريقية فكل ما قاله أنهم كانوا من الجند.

3) محمد علي دبوز، المرجع السابق، ج3، ص 326.

4) قدور وهراني، المرجع السابق، ص 218.

5) ابن الصغير: المصدر السابق، ص 52.

حصنا لها معروفا [1] ونستنتج من هذا الحادث أن هوارة كانت خارج تيهرت ثم دخلتها، كما يتحدث ابن الصغير عن صنهاجة أنها كانت في صف العجم.[2]

جيش غير نظامي : قوامه الرحل، وتمثله القبائل التي تقصد تيهرت وضواحيها لانتجاع الكلأ، في أيام الربيع [3] والمتطوعون، أو الأطراف المتحالفة مع الدولة من مختلف القبائل، فهم ينضوون تحت لواء التشكيلة العامة للجيش في حالة الحرب فقط، ويسرحون في حالة السلم [4] وقد حدد ابن الصغير الرحل، فمنهم مزاتة وسدراتة حيث يقول " إن قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهما، كانوا منتجعين من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها من أشهر الربيع إلى مدينة تيهرت وأحوزها لما حولها من الكلأ" [5]

وفي الأزهار الرياضية يشير إلى المهمات الظرفية للجيش بقوله " ثم شرع الإمام في شراء الكراع و السلاح، وقوي بيت مال المسلمين بالذخائر الحربية ومهمات الدفاع الوقتية وتقوى الضعيف وانتعش الفقير." [6] حيث يشير الباروني إلى أن هناك مهمات الدفاع الوقتية أي التي تتغير من وقت إلى آخر وعادة ما تظهر في فترة الحرب.

و يخصص للقسم الأول، أي الجند النظامي رواتب تمنح لهم شهريا أو مخصصات يومية بطريقة منتظمة، في حين يحصل القسم الثاني، على جزء من الغنائم، بناء على اتفاق مسبق يتم بين الدولة والمتحالفين معها من القبائل المختلفة، على غرار قبيلة لواتة وهوارة وصنهاجة.[7]

---

1) المصدر نفسه، ص 85.

2) قدور وهراني، المرجع السابق، ص 217.

3) إحسان عباس، المرجع السابق، ص 24.

4) جورج كاستلان ، تاريخ الجيوش، ترجمة كمال الدسوقي، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، 1956، ص 65.

5) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 47- البكري، المصدر السابق، ص 67.

6) الباروني: الأزهار الرياضية، المصدر السابق ، ص 87.

7) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 52، 85، 108.

كما أنه يمكن استنتاج أن الجيش الرستمي امتاز بالتنظيم، وقوة التعبئة خاصة في الفترة الأولى من حكم الأئمة العظام، حيث تجيب عنه الأحداث عندما قاد عبد الرحمن بن رستم جيشا من الاباضية قوامه خمسة عشر ألف مقاتل لحصار طبنة أثناء الصراع مع أبي الحوص القائد العباسي في إفريقية.[1]

ثم ازداد الجيش تنظيما في عهد عبد الوهاب حيث يذكر ابن الصغير بقوله "...فعبأ عبد الوهاب عسكره، ورتب قواده..." [2] كما يضيف ابن الصغير بقوله "...ثم تقدم قدما وهو في ذلك كله قاصدا بكتيبته نحو عدوه... فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى فض جميع القوم بكتيبته " [3] ونستنتج من قوله أن الجيش كان ينظم في كتائب يعين على كل كتيبة قائد، أو يقسم إلى طلائع حسب طبيعة جيش العدو.[4]

كما يمكن أن نستنتج آلاته، ووسائل دفاعه من استخدام للسيوف [5] والدروع [6] وحتى النبال [7] وبنى الحصون[8] والقلاع، والبروج الحربية ، واستخدم الخيول[9] واتخذ الرايات [10] أما القيادة العامة للجيش فتعتبر من المسؤوليات الكبرى في الدولة، نظرا لإسناد هذه المهمة لرجل كفء، فكان اللجوء إلى الاختيار الدقيق لقياداته أمرا بالغ الأهمية، لما يتحمله القائد من مسؤوليات في اتخاذ القرارات الصائبة، التي تجعل منه عنصرا فاعلا، يتصرف بحنكة عالية عند كل طارئ يعترض جيشه، وفي

---

1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج، س كولان، و إ ليفي برفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط 2، 1983 ، ج1، ص 75.

2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 54- أبو زكريا، المصدر السابق،ص 93.

3) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 55.

4) الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص 166.

5) الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص 83.

6) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 80.

7) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 84.

8) المصدر نفسه، ص 83.

9) أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 157.

10) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 80.

أغلب الأحيان كان الأئمة الرستميون يتولون قيادته العليا بخروجهم على رأسه، كما هو الحال مع عبد الوهاب[1] وأفلح، خاصة في الفترة الأولى لتثبيت أركان الدولة وتدعيمها، أو قد يكلفون واليا من ولاة الأقاليم التابعة للدولة كإقليم نفوسة أو طرابلس[2]، أو يكلفون قاضي المنطقة بذلك[3] خاصة في فترات السلم أو في الفترة الأخيرة من ضعف الدولة الرستمية.

ويخصوص تعداد الجيش : فقد امتلك الرستميون جيشا كبيرا في اغلب الفترات الأولى، اتسعت نشاطاته لتشمل حواضر الدولة كلها، إلى جانب مهمته الرئيسية في تأمين مناطق النفوذ، أو لفرض الأمن والاستقرار داخل الدولة بالتحكم في القبائل وفض النزاعات والمعارضة، مما جعل المصادر تذكر بعض تعداده بقولها " جمع عبد الرحمن بن رستم خمسة عشر ألف " أو قول ابن عذارى أن نفوسة منعت إبراهيم بن أحمد الأغلبي وكانت في عشرين ألف فارس "[4] أو قول ابن الصغير " فاجتمع إلى عبد الوهاب أمم كثيرة وخلق عظيم "[5] وقوله خلق عظيم يبين مدى تعداد الجيش.

1) أبو زكريا، المصدر السابق،ص 99، 102 رغم الوصف الكثير لابن الصغير لتولي كل إمام ولأوضاعه إلا أنه لم يشر إلى مسؤولية الإمام في المقام الأول في الشؤون السياسية والحربية أي قيادة الجيش، مما يعزو إلى بساطة التفكير في اختيار الحاكم.

2) ذكر أبو زكريا أن الياس أبو منصور كان عاملا على جبل نفوسة، وقد قاد الجيش بنفسه ".. وكان أبو منصور في مسيرته إذا حل وقت الصلاة نقر في طبله ويقف أول العسكر لآخره ويصلي بهم ركعتين فيرتحلون.." أبو زكريا، المصدر السابق، ص 153.

3) كان قاضي أبي منصور هو عمروس بن فتح وقد قاد جيش، حيث أورد أبو زكرياء قوله ".. وبلغنا أن عمروس بن فتح كان في آخر المعركة يحمي الناس ويذود عنهم ولم يقدروا عليه..." أبو زكريا، المصدر السابق، ص 157.

4) ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق ج، س، كولان: إ ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط 2، 1983، ج1، ص 139.

5) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 53.

ورغم أن أغلب المصادر تميل إلى تضخيم الأعداد إلى أنها عموما تعطينا صورة عن الجموع الاباضية المجندة والزاحفة للقتال، وهذا يبرز بوضوح اتباع الرستميين لأسلوب التعبئة والدعوة للنفير[1] والجهاد حتى الاستنجاد بالقبائل المتحالفة.

وحتى الباروني يصف جيش أبي اليقظان بقوله " فأمدوه ملبين دعوته عرمرم جامع لكل همام " [2] حيث يصفه بالقوة، رغم أنه لم يحدد عدده كما فعل ابن الصغير، واكتفى بنعته بجموع عظيمة، غير أنه ما يفهم من سير الأحداث أن هذا الجيش كان من القوة ما جعله يرجح كفة أبي اليقظان مع القوة المضادة له، وكان أغلبه من قبيلة نفوسة التي قدمت يد المساعدة ولبت نداء الاستنجاد، ولم تتحدث المصادر الاباضية عن عودة جيش نفوسة إلى الجبل بعد انتهاء مهمته في تثبيت حكم أبي اليقظان والقضاء على الفتنة [3]

أسباب تدهور الجيش الرستمي

وعموما يمكن تفسير أسباب تدهور الجيش في عهد الأئمة الأواخر إلى :

* يلخصها عبد الرحمن الجيلالي بقوله إن أكبر عامل في سقوط هذه الدولة هو اختلاف الكلمة بين الحكومة والشعب، وما انتشر عن ذلك يومئذ من الفتن والاضطرابات التي أضعفت من هيبة الحكومة أمام رعيتها، فتضعضعت بفقد جندها الحامي، مع إهمالها لتقوية الجيش " [4]

---

1) أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 96، ويشير إليها محمد علي دبوز بقوله " وكانت القبائل الكبرى تجند في النفير العام الكثير.." محمد علي دبوز، المرجع السابق، ج3، ص 326.

2) الباروني، المصدر السابق، ص 296

3) صالح معيوف، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية، ليبيا، منشورات مؤسسة تاوالت، 2006، ص 204-205.

4) عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 176.

* تحطم قبيلة نفوسة التي كانت العمود الفقري للدولة في موقعة مانو [1] سنة 283 /896 ويعتبر النفوسيون الدرع الواقي للدولة والمادة العسكرية الأساسية، لهذا قال عنها الإمام عبد الوهاب " إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة " [2]

وأمام هذه الضربات المتلاحقة، انهارت نفوسة التي كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس، ولم تعد لها تلك القدرة الغنية على مواصلة إمداد تاهرت اقتصاديا وعسكريا [3] ومنذ ذلك العهد لم تعد نفوسة توافي الرستميين بالإمدادات، وكان لذلك أعظم الأثر في ضعف الجيش الرستمي واضمحلال الدولة.[4]

*ولعل سبب عدم تكوين جيش لها في الفترة الأخيرة يعود إلى كثرة القبائل المنضوية تحت لواء الاباضية مما يصعب جتما جمعهم تحت قيادة واحدة وجيش واحد؛ وبضعف الأئمة تفشى نفوذ العصبيات القبلية، والطوائف المذهبية، حيث ازداد أثر هذه الطوائف وخاصة في أواخر عصر بني رستم [5] حيث عجز الأئمة الأواخر على التوفيق بين مختلف القبائل، ودارت الصراعات بين محاور متنوعة: تمثل مصالح

1) مانو: قصر قديم بين قابس وطرابلس تقريبا – أنظر الباروني عبد الله بن يحي النفوسي، رسالة العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، مصر، 1324، ص 17، هامش 1؛ حيث في موقعة مانوا " فل حد سيوف نفوسة، وفنيت فيها أبطالهم " الباروني، الأزهار،المصدر السابق، ج2، ص 280 إذ انهزم برجاله أمام الأغالبة، وأريقت دماؤهم في البحر حتى غلبت حمرة الدم على الماء – الشماخي، السير، المصدر السابق ، ص 268؛ وموقعة مانو وقعت سنة 896/283 – صالح معيوف، المرجع السابق، ص 170، وعن خسائرها يتحدث أبو زكرياء ' أنه بلغنا عن الثقاة من أهل الجبل أن عدة من قتلاهم اثنا عشر ألف من نفوسة وثمانية آلاف من كان معهم من البربر وغيرهم؛ وفيهم أربعمائة عالم " السير، المصدر السابق، ص 156-157.

2) أبو زكريا، المصدر السابق، ص 155.

3) ابن عذارى، المصدر السابق، ج 1،ص 130.

4) محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 180.

5) المرجع نفسه، ص 228 الأمر الذي دعا الإمام أبو اليقظان محمد إلى الانتقاص من سلطة بعض القبائل، التي كانت تستأثر بالمناصب العامة، وجعلها مشاعا بين كافة الفرق والطوائف من غير الاباضية – محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب؛ ص 200.

القبائل المتعددة، فكثرت ضروب الولاء وأنواع التحالفات، بحسب ما تمليه المصالح، فكان مما حال دون انصهار هذه العناصر – في وحدة عسكرية واحدة – لتشبثها بانتماءاتها القديمة، بل لجأ البعض نتيجة الحذر إلى بناء حصون يأوون إليها في أيام الفتن.[1]

* كما كان من الصعوبة بما كان اختيار الإمام ليجمع كل هذه المتناقضات القبلية، دون أن يكون ذلك لقبيلة على حساب الأخرى[2]، فانعكس ذلك على الوحدة العامة وتكوين جيش من مختلف القبائل.

فيذكر بعض كتاب الاباضية أنه عندما مر أبو عبد الله الشيعي على تيهرت خرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة، والواصلة والصفرية والمالكية وقدموا له الشكاية في اليقظان ووعدوه بالإعانة بالمال والرجال، ورغبوه في استئصال هذه العائلة وانتزاع الأمر من أيديهم لأنه لا رجال ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لإدبار الناس عنه بما وقع من قتل الإمام.[3] وهذا دليل أن تحول النظام إلى الوراثي نتج عنه ظهور معارضة تزداد أو تضعف، أثرت في كيان الدولة وانعكس على الجيش.

كما يبين نص الدرجيني أهمية الإمام في قوة أو ضعف الجيش بقوله " ولما توفي عبد الوهاب تداعى العدو من تاهرت طمعا في الاستيلاء عليها ورجوا الظفر بها وبأهلها لما ظنوه من عجزهم عن المدافعة، إذ أضحوا بلا إمام.."[4]

لكن صراع المصالح بين القبائل الريفية الطامعة في السلطة، ورغبات الفرس، وتطلعات الجند والعرب[5] لم تسمح بتوحيد صفوف الجيش وتنظيمه تحت قيادة واحدة وأساليب تدريب واضحة، وكما يقول أحد المؤرخين المحدثين بأن المجتمع

---

1) إحسان عباس، المرجع السابق، ص 23

2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 31

3) أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 169 – الباروني، المصدر السابق، ج 2: ص 292، 293.

4) الدرجيني، طبقات المشايخ، المصدر السابق، ج 1، ص 70.

5) محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 228.

الرستمي مجتمع بدوي تغلب عليه البداوة، ولذلك لم تقم فيه مؤسسات دولة بالمعنى الدقيق والمتعارف عليه لهذا المفهوم [1] خاصة المؤسسة العسكرية.

* انحياز الدولة الرستمية بنفسها عن الدخول في صراع مسلح مع من جاورها من القبائل أو الدول، ورغبتها في العيش في دعة وسلام.

* كما يورد إحسان عباس لسبب مهم حسب النظرة السائدة في تلك الفترة وهي النظرة الاجتماعية الاقتصادية أن سبب ضعف الدولة وبالتالي الجيش هو " نشوء طبقة كبيرة من الأثرياء تتحدى قدرة نفوسة على تطبيق الأحكام وتمثل – رغم انقسامها أحيانا وتضارب مصالحها – قوة ضغط اقتصادي وسياسي.[2]

ويضيف بقوله " ويبدو أن الجيش النظامي الذي كونه الإمام عبد الوهاب كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة، إذ لم نعد نسمع شيئا عن الجند بعد تحوله في صف العرب ضد العجم أيام أبي بكر "[3] وهو بذلك يشير إلى الصراعات العرقية التي تنامت في أواخر الدولة بين العرب والعجم وبين البربر والعرب والعجم معا.

الخاتمة

إن أغلب الآراء الواردة في شأن الجيش الرستمي والمنكرة لوجوده، حكمت على الأمر بسطحية، أو من خلال النتيجة النهائية وهي سقوط الدولة الرستمية بسهولة في يد الفاطميين الشيعة.

تتوفر الدولة الرستمية على كل مقومات وجود جيش نظامي: من عدة وقيادة، وانتشار مختلف الصناعات المساهمة في توفر الأسلحة المتنوعة، إضافة إلى الرخاء المالي والاقتصادي للدولة، مما يسمح حتى باستيراد أو تمويل الجيش والتكفل بمرتبات الجند.

---

[1] صالح معيوف، المرجع السابق، ص 122.

[2] إحسان عباس، المرجع السابق، ص 23

[3] المرجع نفسه، ص 34

قسم الجيش الرستمي على غرار كل الدول المعاصرة لها إلى جيش نظامي ثابت قوامه العناصر التي اتخذت الجندية مهنة قارة لها، وجيش متطوع أثناء النفير، قوامه مختلف القبائل والرحل، كما امتاز الجيش الرستمي بالتنظيم والتعداد الكبير.

من خلال كل ما سبق يتضح في تقديري أن الدولة الرستمية لم تخل في فترة ما من جيش يحمي مناطق نفوذها ويقيم سيادتها، بل بالعكس بلغ أقصى قوته وتطوره في عهد الإمام عبد الوهاب، وظهر الجيش بنوعه النظامي والمتطوع، ولكنه يختلف تطور نظام الجيش وقوته من فترة لأخرى ومن عهد لآخر، حسب استقرار الدولة وقوتها، والتي تستمدها من قوة أئمتها وكثرة مواردها أو اختلالها، كما أن الصراعات القبلية وحتى المذهبية، والاقتصادية والمكانة الاجتماعية، والعرقية، ساهمت في عدم وجود جيش دائم ومنظم وقوي في فترات لاحقة، خاصة في أواخر حياة الدولة الرستمية.